

الدور المحوري للمرأة في الحملة
الصليبية الأولى (٤٨٩هـ - ١٠٩٦م)
(أبعاد المشاركة وأثرها التاريخي)
Women's participation in the
First Crusade 489 AH/1096 AD

إعداد

د. عيادة عاشور سالم هرهور
كلية الآداب - الجامعة الأسمرية - ليبيا
هاتف واتسآب: 00218917382105



ملخص:

تناولت الدراسة مشاركة المرأة في الحملة الصليبية الأولى بوصفها ظاهرة تاريخية معقدة تجاوزت الأدوار التقليدية للمرأة في العصور الوسطى ، فقد شهدت دعوة البابا أوربان الثاني عام ١٠٩٥ استجابة نسائية واسعة و غير متوقعة ، ما أثار دهشة المعاصرين و دفع المؤرخين و البحاث إلى البحث في دوافع هذا الحضور اللافت ، وتكشف الدراسة أن مشاركة النساء لم تكن محكومة بدافع واحد بل نتجت عن تداخل عوامل دينية و اجتماعية و أمنية ، حيث مثلت الحملة إطاراً أكثر أماناً مقارنة برحلات الحج الفردية إلى جانب الرغبة في نيل الخلاص ومرافقة الأقارب ، ورغم الانتقادات الأخلاقية التي وجهها بعض المؤرخين مثل (Albert of Aachen) والتي حاولت التقليل من شأن النساء فإن المعطيات التاريخية تثبت أنهن أسهمن بفاعلية في دعم الحملة ، وخاصة من خلال التمويل ، حيث شكلت مساهماتهن نسبة معتبرة من الموارد المالية ، فضلاً عن أدوارهن اللوجستية في المعسكرات ، كما تبرز الدراسة التباين الطبقي في طبيعة المشاركة النسائية ؛ إذ لعبت النساء النبيلات أدواراً سياسية وإدارية مهمة ، كما (في حالة Adela of Blois) في حين شكّلت النساء الفقيرات العمود الفقري للحشود الشعبية ، و تحملن أعباء الرحلة القاسية ، بل وشاركن أحياناً في القتال ، وفي المقابل عانت النساء غير المسيحيات وخاصة اليهوديات من عنف ممنهج خلال مرور الحملات ما دفع بعضهن إلى تبني أشكال قصوى من المقاومة للحفاظ على هويتهن الدينية ، ومن جهة أخرى تقدم كتابات (Anna Comnena) رؤية بيزنطية نقدية تكشف عن تعقيد صورة المرأة حيث تظهر كضحية وفاعلة في آن واحد ، وتخلص الدراسة إلى أن المرأة لم تكن عنصراً هامشياً ، بل أسهمت في تشكيل البنية الاجتماعية و السياسية للحملة سواء من خلال الدعم الاقتصادي أو التأثير المعنوي أو حتي الحضور الميداني ، مما يعكس تحولات عميقة جداً في أدوار النساء خلال هذه الحملة التاريخية .

الكلمات المفتاحية : الحملة الصليبية الأولى - المشاركة النسائية - الأدوار اللوجستية - التباين الطبقي .

Abstract :

This study examines women's participation in the First Crusade as a complex historical phenomenon that transcended the traditional roles of women in the Middle Ages. Pope Urban II's call in 1095 witnessed a broad and unexpected response from women, surprising contemporaries and prompting historians and researchers to investigate the motives behind this remarkable presence. The study reveals that women's participation was not governed by a single motive but resulted from an interplay of religious, social, and security factors. The crusade represented a safer framework compared to individual pilgrimages, in addition to the desire for salvation and accompanying relatives. Despite the moral criticisms leveled by some historians, such as Albert of Aachen, who attempted to diminish the role of women, historical data proves that they contributed effectively to supporting the crusade, especially through financing, as their contributions constituted a significant percentage of the financial resources, in addition to their logistical roles in the camps. The study also highlights the class disparity in the nature of women's participation. Noble women played important political and administrative roles, as in the case of Adela of Blois, while poor women formed the backbone of the popular mobilization, bearing the burdens of the arduous journey and sometimes even participating in combat. Conversely, non-Christian women, particularly Jewish women, suffered systematic violence throughout the crusades,



leading some to adopt extreme forms of resistance to preserve their religious identity. On the other hand, the writings of Anna Comnena offer a critical Byzantine perspective that reveals the complex image of women, portraying them as both victims and agents. The study concludes that women were not marginal elements but rather contributed to shaping the social and political structure of the crusade, whether through economic support, moral influence, or even direct participation on the ground. This reflects profound shifts in the roles of women during this historical campaign.

Keywords: First Crusade - Women's Participation - Logistical Roles - Class Differentiation

مقدمة

تُعَدُّ الحملة الصليبية التي أطلقها البابا أوربان الثاني (٤٨٩هـ - ١٠٩٦م) من أبرز التحولات التاريخية في تاريخ العصور الوسطى ، ليس فقط من حيث نتائجها العسكرية و السياسية ، بل أيضاً لما أفرزته من تحولات اجتماعية عميقة مست بنية المجتمعات الأوروبية و الشرقية على حدّ سواء ، وفي هذا السياق يبرز الحضور النسائي بوصفة ظاهرة تاريخية معقدة تجاوزت الأطر التقليدية لدور المرأة في تلك الفترة ، الأمر الذي أثار اهتمام العديد من المؤرخين المعاصرين و اللاحقين، نظراً لطابعه غير المألوف و كذلك اتساع نطاقه داخل حركة ذات طابع (عسكري - ديني)

إشكالية الدراسة : تتمحور الإشكالية الرئيسية حول : إلى أي مدى يمكن اعتبار مشاركة النساء في الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م تعبيراً عن فاعلية تاريخية مستقلة ، أم أنها كانت انعكاساً لبنى اجتماعية ودينية فرضت عليهن أدواراً محددة ؟
أما الأسئلة الفرعية فتتمثل في :

- ▶ ما طبيعة الدوافع التي حفّزت النساء على الانخراط في الحملة ؟
- ▶ كيف تباينت أدوارهن باختلاف الانتماء الطبقي (نبيلات \ عامة) ؟
- ▶ ما حدود تأثيرهن في المسارات العسكرية و السياسية و الاجتماعية ؟
- ▶ كيف عكست المصادر اللاتينية و البيزنطية و اليهودية و الإسلامية هذا الحضور النسائي ؟

أهمية الدراسة :

تسعى أهمية الدراسة أنها تُسهم في إثراء حقل الدراسات التاريخية المقارنة عبر تحليل تباين الروايات بين مؤرخين مثل Albert of Aachen و Fulcher ، مقابل الرؤية البيزنطية التي قدمتها Annacomnena ، فضلاً عن السرديات اليهودية و الإسلامية التي وثّقت تجارب النساء بوصفهن ضحايا وفاعلات في آن واحد ، فيتمثل في إبراز البعد

الإنساني للحملة وذلك من خلال دراسة معاناة النساء ومقاومتهن، بما يعكس تعددية تجربة النساء في سياق الصراع .

الهدف من هذه الدراسة :

تهدف الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف وهي :

- ▶ تحليل طبيعة المشاركة النسائية في الحملة
- ▶ تفسير الدوافع الدينية و الاجتماعية و الاقتصادية ، وكذلك الكشف عن أدوار النساء في المستويات اللوجستية و العسكرية و السياسية .
- ▶ تأثير الانتماء الطبقي في تشكيل هذه الأدوار ،
- ▶ تقييم صورة المرأة في المصادر التاريخية المختلفة ومدى تحيزها أو موضوعيتها .

الدراسات السابقة :

1- *Natasha L.hodgson,(2007) Women ,Crusading and the Holy Land in Historical Narrative.*

هذه الدراسة تناولت مشاركة النساء في الحملة الصليبية الأولى من منظور اجتماعي، حيث ركزت الباحثة على تحليل دوافع الانخراط النسائي، معقدة مقارنة بين عامل (الأمان) في الحملة ورحلات الحج التقليدية السابقة لها ، كما استفاضت الدراسة في تحليل الأدوار اللوجستية والخدمية التي اضطلعت بها النساء داخل المعسكرات الصليبية وكيفية تصوير المصادر التاريخية لهذه الأدوار، حيث تعد هذه الدراسة من المراجع التخصصية القليلة التي أفردت مساحة واسعة لدور المرأة في الحركة الصليبية ،وساعده في فهم الصورة الذهنية للمرأة في الكتابات التاريخية المعاصرة للحملة.

2- *Connor Kostick,(2008) The Social Structure of the First Crusade*
ركزت هذه الدراسة على البنية الاجتماعية والاقتصادية للحملة

الصليبية الأولى، مبرزّة دور الفئات المهمشة التي سقطت غالباً من حسابات المؤرخين التقليديين، وكما خصص الباحث حيزاً لتحليل دور النساء الفقيرات ضمن (العوام) متناولاً ظواهر فريدة مثل (الحماس الشعبي) والقيادات غير التقليدية ومنها قصة (صاحبة الإوزة)

3- Jonathan Riley-Smith,(2005) The First Crusaders,-1131-1095

تناولت هذه الدراسة الجوانب الدينية والتنظيمية العميقة للحملة الصليبية الأولى، وقد استعرض الباحث سياسات البابوية تجاه (غير المقاتلين) وكيف حاولت الكنيسة ضبط تدفق الحشود البشرية، مع الإشارة إلى القيود القانونية والشرعية التي فرضت على مشاركة النساء ومحاولات الحد منها لضمان الكفاءة العسكرية. هذه الدراسة تسليط الضوء على الموقف الرسمي (المؤسسي والكنسي) من وجود المرأة في ميادين القتال.

منهج الدراسة :

تعتمد الدراسة على منهج تاريخي تحليلي مقارنة، يقوم على نقد المصادر الأولية و القراءات الحديثة، من خلال تفكيك الخطاب التاريخي لدى المؤرخين اللاتين و البيزنطيين و اليهود و المسلمين، ومقارنته في ضوء السياقات السياسية والدينية .

هيكل الدراسة

تتكون من محورين هما :

المحور الأول: المرأة والبنية الطبقية الأدوار والمكانة الاجتماعية (النساء النبيلات - النساء

الفقيرات - النساء المسنات)

المحور الثاني : المرأة في السياقين الديني و السياسي (النساء اليونانيات و اليهوديات - المرأة و الزواج في مملكة بيت المقدس)

الخاتمة : استعرضت النتائج التي توصلت إليها.

قائمة المصادر و المراجع.



مشاركة النساء في الحملة الصليبية الأولى التي دعا إليها البابا أوربان الثاني عام ١٠٩٥، حيث شهدت تلك الفترة استجابة نسائية واسعة وغير متوقعة أثارت دهشة المعاصرين والحيرة لدى المؤرخين اللاحقين الذين حاولوا تفسير هذا الحماس اللافت (Albert of Aachen, ٢٠١٣, p. ٤٩) فبينما يرى البعض أن دوافع الحضور قد تعود لضغوط عائلية أو رغبة في توسيع الآفاق الثقافية والدينية، يبرز عامل الأمان كدافع جوهري، إذ وفرت الطبيعة المسلحة للحملة حماية أكبر للنساء مقارنة برحلات الحج التقليدية، سواء سافرن مع عائلاتهن أو ضمن مجموعات من الأرامل (Natasha L. Hodgson, ٢٠٠٧, p. ٤١) ومع ذلك لم تخل هذه المشاركة من الانتقادات اللاذعة، ويرى المؤرخ Albert of Aachen في أخلاق النساء المسافرات واتهموهن بالبحث عن اللهو أو استخدام السفر كذريعة لإقامة علاقات غير شرعية، واصفاً إياهن بعبارات قاسية تعكس نظرة سلبية تجاه انخراطهن في هذا المسار، إلا أن الوثائق التاريخية تفند هذه النظرة الدونية من خلال إثبات الدور الفعال للمرأة في التجهيز المادي والروحي، إذ تشير الإحصائيات إلى أن النساء قدمن التزامات كبيرة وساهمت مبيعات أصولهن بنسبة تصل تقريباً إلى ٩٪ من الموارد المالية للصليبيين (Albert of Aachen, ٢٠١٣, p.) كما استعانت العائلات بأملآكهن عند الضرورة، وهذا ما جعل مراقبين يصفون إصرار حتى البسطاء من النساء على الالتحاق بالحملة بأنه معجزة ورغم أن البابا حاول لاحقاً وضع قيود على الأعداد الهائلة من غير المقاتلين واشترط توفر مرافق وإمدادات كافية، مما جعل انضمام العازبات شبه مستحيل، إلا أن الفرصة ظلت متاحة للمتزوجات والأمهات اللواتي دفعهن الوازع الديني القوي والرغبة في نيل الخلاص ومرافقة أقاربهن الرجال في رحلة كانت تمثل فرصة نادرة ومقدسة للحج في ذلك العصر. (رايلي سميت، ٢٠٠٥، ص ٦١) هذا وقد تجسد مشاركة المرأة في الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م ظاهرة تاريخية معقدة تجاوزت مجرد الرغبة التقليدية في الحج أو التكفير عن الذنوب، لتشكل نهجاً مغايراً في السعي نحو الخلاص الروحي ضمن إطار عسكري منظم،

حيث يشير المؤرخ « Fulcher » إلى أن الانضمام لم يكن مقتصرًا على الأفراد بل شمل عائلات بأكملها اصطحبت نساءها وأطفالها، مما يعكس تداخلًا وثيقًا بين الروابط العائلية والواجب الديني الذي دفع الزوجات لمرافقة أزواجهن في رحلة اتسمت بوضع غامض يجمع بين صفة الحج والحملة المسلحة (Fulcher, 1998, p63) ورغم كل المحاولات المستمرة لتقييد هذا الحضور النسائي ومنع الكثيرات من الالتحاق، إلا أن الطبقة الاجتماعية لعبت دوراً محورياً في تحديد فاعلية هذه المشاركة وحجمها.

1- دور النساء النبيلات: لقد ركزت السجلات التاريخية على دور النساء النبيلات اللواتي ظهرت بصماتهن في لحظات حرجية، كحصار مدينة «عركة» عام ٤٩٣هـ - ١٠٩٩١ عندما رصد « Guibert of Nogent » مساهمة زوجات النبلاء في المجهود الحربي عبر نقل المواد اللازمة للخدق، وهو ما يثبت أن مكانتهن الرفيعة جعلت من وجودهن أداة مساعدة للجيش الصليبي لا مجرد عبء عليه، ومع ذلك ظل انضمام الزوجات إلى قادة الحملات أمراً نادراً نظراً للواجبات الإدارية الجسيمة التي كانت تقع على عاتق النساء في إدارة الأملاك داخل أوطانهم في غياب الرجال (Guibert of Nogent, 1992, p197) مما جعل أغلب النبيلات المسافرات يرافقن إخوتهن أو أقاربهن الذكور بدلاً من أزواجهن (Hodgson, 1962, p60).

1.1- إلفيرا القشتالية (Elvira of Galicia): هي أميرة من شبة الجزيرة الإيبيرية تنحدر من عائلة ملكية، ينسب أبوها إلى مملكة جليقية (غاليسيا) في القرن الحادي عشر، حيث كانت جزءاً من النخبة الأرستقراطية التي لعبت دوراً مهماً في التحالفات السياسية بين الممالك المسيحية في إيبيريا وتزوجت من القائد الصليبي «ريموند صنجيل» أحد قادة الحملة الصليبية الأولى، وتعتبر Elvira نموذج استثنائي في هذا السياق الحملة (ابن الأثير، ١٩٦٥، ص ٢٤٥) حيث حل المؤرخون اصطحابها كدلالة على ترتيبات إدارية وسياسية خاصة، فوجود ابن بالغ قادر على إدارة الأملاك في الوطن حرر Elvira من قيودها الإدارية التقليدية، بينما عكس قرار ريموند باصطحاب زوجته

وابنهما الصغير نية مبيته للاستقرار وتأسيس حكم دائم في الأراضي المقدسة (p111, 1992, Guibert of Nogent) ولتظل هذه الوقائع شاهدة على أن الحضور النسائي في الحملة الصليبية لم يكن عشوائياً، بل خضع لاعتبارات طبقية، وعائلية، واستراتيجية بالغة الدقة، وتروى النصوص التاريخية لمشاركة المرأة في الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩هـ ١٠٩٦م عبر إلقاء الضوء على نماذج نسوية أرسستقراطية وشعبية صاغت ملامح ذلك العصر، حيث يبرز «Baldwin of Boulogne» ك نموذج لنبيلا اصطحب زوجته «Godhilde» التي وصفها «Albert of Aachen» بالنبيلة للغاية والتي وافتها المنية مع أطفالها في «مرعش» عام ١٠٩٧ نتيجة المرض، مما يعكس الأثمان الباهظة التي دفعتها العائلات النبيلة في هذه الرحلة (p277, 2008, Connor Kostick)، وفي المقابل لعبت النساء اللواتي بقين في ديارهن أدواراً سياسية ونفسية حاسمة.

1.2- أديلا من بلو Adela of Blois : هي ابنة الملك النورماني William the Conqueror «تزوجت أحد قادة الحملة الصليبية Stephen II, Count of Blois» جسدت أديلا نموذج المرأة الحكيمة والجسورة كما وصفها «Orderic Vitalis»، حيث مارست ضغطاً معنوياً هائلاً على زوجها «Stephen of Blois» لإعادته إلى ساحات القتال بعد تراجعها، وهو ما يبرهن على أن التأثير النسائي الأرسستقراطي لم يقتصر على الوجود المادي بل امتد ليشكل مسار القرارات العسكرية والسياسية الكبرى، ورغم شح التفاصيل في الحوليات المعاصرة حول النساء النبيلات، إلا أن ظهورهن في النصوص كان يرتبط غالباً بامتلاكهن ميراثاً شاسعاً أو مكانة كأمهات لورثة ذوي شأن، وهو ما جعلهن يمتلكن نفوذاً إدارياً ملموساً رغم القيود التي حاول البابا أوربان الثاني فرضها للحد من مشاركة غير المقاتلين (p73, 2004, Maier).

1.3- النساء الفقيرات: وعلى صعيد آخر شكلت النساء الفقيرات والمعوزات الكتلة الأكبر في الحملة، حيث وثق «Guibert» مشاهد إنسانية عميقة لعائلات معدمة تحزم أمتعتها البسيطة في عربات تجرها الماشية، مصطحبة أطفالها الذين كانوا يتساءلون ببراءة

عند كل قلعة عما إذا كانت هي «القدس» المنشودة، لتكشف هذه المقارنة الاجتماعية عن تباين حاد في دوافع وظروف السفر، فبينما كانت النبيلات محاطات بترتيبات إدارية، كانت النساء الفقيرات يواجهن واقعاً مريعاً كعائلات بلا معيل، مما دفعهن للاستعداد للقتال جنباً إلى جنب مع الرجال ودعم الحملة بشتى الوسائل (p32, 1989, Cuibert) وصولاً إلى بروز قيادات أنثوية من طبقات متدنية اجترحت مسارات غير تقليدية، كقصة «صاحبة الإوزة» التي ادعت تلقي إلهام غيبي وقادت حشوداً من الناس نحو المجهول، في ظاهرة غريبة تجاوزت القوانين الواضحة لتعكس حالة الهياج الديني والاجتماعي التي صبغت تلك الحقبة الاستثنائية من التاريخ الوسيط. (p278, 2008, Kostick) هذا وتتلور صورة مشاركة النساء في الحملة الصليبية الأولى من خلال سجلات تاريخية تجمع بين الدهشة من جسارتهن ومحاولات تقنين أدوارهن ضمن الأطر الاجتماعية السائدة، حيث تُبرز الروايات التاريخية حالات تجرأت فيها النساء على حمل السلاح والانخراط في القتال الفعلي بما يتجاوز طبيعتهن المفترضة، وهو ما يفسره بعض المحللين كنوع من المبالغة الأدبية الهادفة للتأكيد على القوة المتفوقة للجيش الفرنجي وقدرته على هزيمة الأعداء حتى عبر عناصره غير المقاتلة، وقد علق Cuibert على سلوكها غير اللائق مبيناً نوعاً من الازدراء لأخلاقتها واستعدادها لقتل إوزتها الوفية لتكون وجبة لصاحبته، وقد كشف هذا الازدراء أيضاً عن استياء من نفوذها كشخصية رمزية للحملة كون شهرتها استمرت في الانتشار، وقد ذكرها Cuibert كواحدة من العديد من النساء الفلاحات في الحملة الصليبية حيث أكدت قصة هذه المرأة الطرق المتنوعة التي صاغ بها الفقراء والنساء على وجه الخصوص الأساطير المحيطة بالحملة الصليبية، ورغم أن المؤرخين شككوا في إخلاص النساء الفقيرات في مشاركتهن بالحملة إلا أنهن استمررن في المشاركة، (p33, 1989, Cuibert)

1.4- النساء المسنات : ولاحظ عددٌ من مؤرخي العصر الوسيط حضور النساء، وخصوصاً المسنات، ضمن جموع المشاركين في

الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م كما ورد في مدوناتهم ، ويذكر Guibert حادثة وفاة امرأة أثناء حصار أنطاكية سنة ٤٩١ هـ ١٠٩٧ م، حين كان المدافعون ينهالون بالسهم من أعلى البوابات، فتصاعدت كثافة القذائف حتى غطت معسكر بوهيموند، وأصيب امرأة بسهم فقتلت، وكانت بذلك الحالة الوحيدة المسجلة لوفاة من جانب الصليبيين في تلك الواقعة، وهو ما يعكس محدودية الوفيات في صفوفهم في ذلك السياق. (Guibert, ١٩٩٢, p1٥٥) وتشير الروايات التاريخية إلى أن النساء الأكبر سنًا لم يكنّ قادرات على تحمّل مشاق الرحلة الطويلة، إذ يُروى أن تانكرد قدّم العون لامرأة منهكة بالقرب من نهر (Vardar River)، في حين انتقد بعض المؤرخين ببطء حركة النساء والعاجزين واعتبروه عبئًا على سير الجيش، وفي المقابل صوّرت النساء في بعض المصادر كعنصر مثير للانقسام داخل المعسكر، وتشير الروايات إلى حصار أنطاكية بين أكتوبر ٤٩١ هـ - ١٠٩٧ و يونيو ٤٩٢ هـ - ١٠٩٨ م ألقى باللوم عليهن بسبب ما عُدّ سلوكًا مخالف لأوامر الله، فتم إخراجهن من المعسكر (Hodgson, ٢٠٠٧, p1٦١) (Guibert of Nogent, ١٩٩٢, p1٥٦) ويُرجّح أن كثيرًا من هؤلاء النساء كن زوجات أو مرافقات لرجال من الطبقات الدنيا، وقد شكّل حضورهن تحديًا للضوابط الكنسية التي حرّمت العلاقات خارج إطار الزواج أثناء الحملة، كما أبدى Fulcher امتعاضه من هذه الممارسات. وفي الوقت نفسه، تميزت الحملة الصليبية الأولى بكونها تجمعًا بين الطابعين العسكري والديني، ما أتاح مساحة أوسع نسبيًا لمشاركة النساء في أدوار لوجستية مثل نقل المياه والمؤن، (Fulcher, ٧٢) (Michael R. Evans, ٢٠٠١, p٥٣) ويرى William of Tyer أن دور النساء لم يكن هامشيًا، بل شمل الدعم اللوجستي المباشر خلال المعارك، كما حدث في حصار القدس، حيث أسهمن في تعزيز معنويات الجنود وإمدادهم بالمؤن، رغم القيود الاجتماعية والكنسية التي حدّت من أدوارهن، كما يوضح أيضًا تأثير الأعراف الكنسية مثل مرسوم Burchard of Worms الصادر عام ٤٠٤ هـ - ١٠١٢ الذي قيّد ارتداء النساء لملابس الرجال. (William of Tyer, ١٩٤٣, pp. ٣٦١-٣٦٢) ومع ذلك،

فإن المصادر الوسيطة نادرًا ما أفردت مساحة مستقلة لإنجازات النساء، بل دمجت أدوارهن ضمن السرد الجماعي للحملة، كما أشار المؤرخين إلى صورة المرأة في الحملة الصليبية تظل ناقصة إذا لم يُنظر إليها من زاوية أوسع، خاصة مع ما تكشفه المصادر من معاناة النساء المحليات غير المسيحيات خلال الحروب. (p72, 1998, Fulcher) (p284, 2008, Kostick) (p03, 2001, Michael.R.Evans).

2- النساء اليونانيات واليهوديات: تتسع دائرة البحث التاريخي في أحداث الحملة الصليبية الأولى لتشمل تجارب النساء غير المسيحيات اللواتي عاصرن هذا الصراع في بلاد الشام وفي قلب أوروبا على حد سواء، حيث تشير المصادر إلى أن النساء المسلمات واليونانيات واليهوديات عشن تجربة قاسية اتسمت بالعنف المفرط وفقدان الأمن نتيجة التماس الأول مع جيوش الغرب الصليبية، وهو ما جعل من مآسيهن وأفعالهن مادة توثيقية هامة لفهم أبعاد هذه الحملة من منظور إنساني مغاير. (عاشور، ١٩٩٠، ص ٨٧-٩٢)

2.1- النساء اليهوديات: وفي هذا الإطار تبرز محنة النساء اليهوديات كواحدة من أكثر الصفحات مأساوية في تاريخ أوروبا في تلك الحقبة، إذ ترافق انتشار فصائل «حملة الفقراء» وفرقة «بطرس الناسك» مع موجة تصاعدية من العنف الممنهج ضد الجاليات اليهودية في المدن الألمانية مثل كولونيا عام ٤٩٠هـ - ١٠٩٦م (Robert Chazan, 1987, pp 88-89) حيث وثقت حويلات عبرية حالة الرعب الوجودي التي عاشتها تلك الأسر أمام تهديد الصليبيين الذين لم يستثنوا النساء في حملات النهب والقتل، وقد صور المؤلفون اليهود تلك الفضائع بلغة خطابية قوية تبرز وحشية المعتدين الذين دفعهم الهوس بالتحويل الديني القسري إلى سفك دماء النساء والأطفال (Ravanan, 1987, p 30) وهي سرديّة لم تغفل إظهار «فاعلية» المرأة اليهودية في مواجهة هذا المصير، فبدلاً من الاستسلام للتحويل الديني القسري، وتُجسد الروايات التاريخية التي أرخت لبدايات الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م حيث عُرفت البنية الاجتماعية للمقاومة النسائية تحولاً ملحوظاً حيث لم تُعد المرأة مجرد طرف هامشي في

الصراع، بل برزت كفاعل مركزي في مواجهة العنف الديني من خلال تبني مفهوم «تقديس الاسم الإلهي» (Kiddush Hashem)، كما تعكسه مدونات Solomon bar Simson. وتشير هذه المصادر إلى أن نساء المجتمعات اليهودية في مدن حوض الراين، ولا سيما Mainz و Worms اختزن التحكم في مصائرهن عبر إنهاء حياتهن طواعية، أو المشاركة في قتل أفراد أسرهن، تفادياً للتحويل القسري عن الدين أو الوقوع في الأسر، وهو ما نقل موقعهن من خانة الضحية السلبية إلى مرتبة الفاعل الديني الواعي. وقد تحول جسد المرأة في هذا السياق من مجرد هدف للعنف إلى رمز للمقاومة الروحية، معبراً عن ذروة التوتر بين الالتزام العقدي وضغوط الإكراه الديني التي رافقت تلك المرحلة، حيث لم يُنظر إلى هذا الفعل بوصفه هرولاً، بل باعتباره ممارسة شعائرية تهدف إلى صون الهوية الدينية في مواجهة الفناء (Robert Chazan, 1987, p113-115)

2.2- النساء اليونانيات : تجلّى الدور الجوهري والاستثنائي الذي لعبته النساء اليونانيات إبان الحملة الصليبية الأولى، حيث لم تقتصر أدوارهن على كونهن شاهدات عيان أو خادمت فحسب، بل كن في قلب الأحداث كضحايا ومعتديات ومحاورات في آن واحد، وقد برزت من بينهن شخصية «Anna Comnena» ابنة الإمبراطور أليكسيوس الأول كأهم شاهدة عيان ومؤرخة لتلك الحقبة، فقدمت في روايتها التاريخية منظوراً نقدياً عميقاً يعكس موقف البلاط اليوناني المناهض لأفعال الجيش الصليبي، وهو ما تشكل ربما نتيجة الصعوبات السياسية التي واجهها والدها مع القادة الصليبيين أمثال «بوهيموند» (Michael, 1984, p144) وقد اتسمت رؤية «Anna» للصليبيين «الفرنجة» بمزيج معقد من المشاعر المتناقضة، فبينما وصفت «بوهيموند» بالجشع المفرط للمال، لم تخلُ كتاباتها من إعجاب بفروسية آخرين مثل «تانكرد» الذي وصفته بالجندي الأكثر صبراً، لتتأرجح مذكراتها دوماً بين المدح والازدراء (Annacomnena, 2000, p190) ولم تكن سيرتها مجرد انعكاس لموقف والدها السياسي بل كانت تجسيدا للمنظور النسوي اليوناني الذي

عاصر تلك الحملات، حيث أظهرت وعياً حاداً بالاختلافات الجوهرية بين اللاتين والبيزنطيين خاصة في المسائل اللاهوتية، منتقدة ما اعتبرته احتقاراً من الصليبيين للثقافة واللاهوت اليوناني وإساءة لإدارة الكنيسة، لترسم بذلك من خلال موقعها كأميرة ومثقفة صورة بانورامية للصليبيين كخليط من الرجال والنساء الصاخبين والمحفوفين بالخطر والجموح. (Annacomnena, ٢٠٠٠, p٢٩٢). تُعد الروايات التاريخية ميداناً لتباين الرؤى السردية في توصيف سلوك الصليبيين تجاه النساء، حيث يظهر اختلاف بَيّن بين سرديات المؤرخين اللاتينيين الذين عمدوا إلى تجميل صورة المقاتلين وإبرازهم في إطار أخلاقي يتسم بالرحمة، وبين شهادات الضحايا، ولا سيما النساء اليهوديات، اللواتي وثّقن أنماطاً من العنف المكثف، الأمر الذي يجعل تلك الادعاءات موضع تعارض صريح مع المعطيات الميدانية التي واجهتها الجماعات غير المسيحية. وفي هذا الإطار تبرز تجربة النساء البيزنطيات بوصفها زاوية نظر متميزة عاينت الحملة الصليبية الأولى من داخل المجال الإمبراطوري، حيث تتقدم Annacomnena ابنة الإمبراطور ألكسيوس الأول بوصفها من أبرز الشاهدات والمؤرخات لتلك المرحلة؛ إذ لم تقتصر مدونتها على تسجيل سيرة الإمبراطور، بل انطوت على رؤية سياسية نقدية تعكس موقف البلاط البيزنطي من الحضور الصليبي في الشرق (Michael, ١٩٨٤, p١٤٤). هذا واتسم خطاب Annacomnena بنزعة نقدية واضحة تجاه الفرنجة، متأثرة بالسياقات السياسية والعسكرية المعقدة التي واجهها والدها مع قادتهم، وعلى رأسهم بوهيموند، الذي قدّمته بوصفه نموذجاً للبراغماتية المتطرفة والنزعة المادية، في مقابل إقرارها النسبي بشجاعة بعض القادة الآخرين، مثل «تانكرد» ضمن إطار يجمع بين الإعجاب والتحفّظ، ولم ينحصر نقدها في الجانب العسكري بل امتد ليشمل البعد اللاهوتي، حيث عبّرت عن رفضها لما اعتبرته قصوراً صليبيّاً في استيعاب العقيدة البيزنطية وسوء تمثيل للمؤسسة الكنسية، مقدّمة الصليبيين في سردها كجماعة غير منضبطة صاخبة تفتقر إلى العمق الروحي والتنظيم المؤسسي الذي يميز الإمبراطورية

البيزنطية. وعلى هذا النحو تمثل كتابات Annacomnena شهادة أرسقراطية ذات بعد نسوي فريد، تُبرز من خلالها حضور المرأة البيزنطية بوصفها فاعلاً سياسياً ومؤرخاً نقدياً في سياق أحد أبرز التحولات الصراعية في تاريخ العصور الوسطى (Anna Comnena, ٢٠٠٠, p. ١٩٥). هذا وتعكس آراء Anna Comnena حول الحملة الصليبية الأولى تصوراً تاريخياً يبرز الطابع الشعبي المبكر لهذه الحركة، إذ ربطت اندفاعها الأولي بالتأثير الدعوى الذي مارسه بطرس الناسك، أكثر من ارتباطه بتنظيم بابوي صارم. وقد عرضت ذلك في مؤلفها الألكسياد، حيث وصفت الحشود المتدفقة نحو المشرق بوصفٍ تصويري يعكس كثافتها واتساعها، مؤكدة أن هذه الجموع لم تقتصر على المقاتلين، بل ضمت النساء والأطفال بوصفهم جزءاً لا ينفصل عن الكيان الاجتماعي للمشاركين في الحملة، وعلى الرغم من نزعتها النقدية تجاه الصليبيين، ألا أنها سجلت إعجاباً ضمناً بما أبدته بعض النساء الصليبيات من جرأة، إذ قدّمتهن في صورة متقدمة ضمن الحشود، يحملن الرموز الدينية ويتجاوزن الأدوار التقليدية المرتبطة بالمرافقة، بما يعكس حضوراً فاعلاً لهن داخل السياق الحربي، ولا يبتعد هذا التصوير عن نظرتها إلى النساء البيزنطيات، اللواتي أظهرن بدورهن قدرة على التكيف والصمود في ظروف النزاع، ولا سيما خلال مرحلة حصار أنطاكية (٤٩١-٤٩٢ هـ ١٠٩٨-١٠٩٩م) إلى جانب هذا تشير Anna Comnena إلى استجابة نساء القسطنطينية لقرارات الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنين (Robert II, Count of Flanders) حيث فضلن مغادرة المجال المنزلي ومرافقته في تحركاته العسكرية، تفادياً لمخاطر التقدم التركي، وهو ما يعكس انتقالهن من وضع الاستقرار المدني إلى تجربة التهجير القسري، بما تحمله من أبعاد إنسانية واجتماعية، و تتضح هذه الصورة من خلال الخطاب السياسي للإمبراطور، خاصة في مراسلاته مع روبرت الثاني كونت فلاندرز، حيث جرى توظيف معاناة النساء وما تعرضن له من انتهاكات ضمن سياق استنهاض الدعم الغربي (Anna Comaena, ٢٠٠٠, p. ٢٠٣) وبهذا تتبلور صورة تاريخية مركبة للمرأة في زمن الحملة الصليبية الأولى،

تجمع بين موقعها كضحية للعنف، ودورها كعنصر فاعل في التفاعل مع ظروف الصراع وتحدياته. (p278, 1980, Boswell Trans) هذا وتتجلى مشاركة النساء في الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م كظاهرة تاريخية استثنائية أربكت الحسابات التقليدية منذ إعلان البابا أوربان الثاني لدعوته عام ٤٨٩هـ - ١٠٩٥، حيث تدفقت أعداد غفيرة من النساء للانضمام إلى الحشود، مما أثار حيرة المؤرخين المعاصرين الذين حاولوا عقلنة هذا الاندفاع عبر فرضيات تتراوح بين الضغوط العائلية والرغبة في الانعتاق الثقافي والديني، فضلاً عن عامل الأمان الذي وفرتة الحملة المسلحة مقارنة برحلات الحج الفردية المحفوفة بالمخاطر، ورغم هذه الاستجابة الواسعة، واجهت النساء المسافرات حملات تشكيك أخلاقية قاسية من قبل كتاب كنسيين مثل (Albert of Aachen) الذي وصمهن بالسعي وراء اللهو واتخاذ السفر ذريعة للعلاقات غير الشرعية، إلا أن المعطيات المادية تدحض هذه الرؤية القاصرة، إذ تشير السجلات إلى التزام نسائي مالي ضخم تمثل في بيع الأصول العقارية والممتلكات الشخصية لدعم الحملة بنسبة وصلت إلى ١٠٪ من إجمالي التعهدات، وهو ما جعل مراقبين يصفون هذا الإصرار النسائي بالمعجزة التاريخية التي استدعت من البابا لاحقاً وضع قيود صارمة على غير المقاتلين لتأمين الإمدادات، مما جعل الانضمام متاحاً بالدرجة الأولى للمتزوجات اللواتي سعين للخلاص الروحي ومرافقة ذويهن، وبالانتقال إلى المنظور البيزنطي (Ciggaar Western, 1994, p164)، نجد أن المؤرخة (Anna Comnena) قدمت في (The Alexiad) قراءة أعمق وأكثر تحليلاً، حيث ترفعت عن الخوض في التفاصيل التي اعتبرتها هرطقة، لتركز بدلاً من ذلك على الدور القتالي والقيادي لنساء أرستقراطيات مثل (غايتا) زوجة القائد النورماني (Robert Guiscard) التي وصفها بالمحاربة الجسورة التي كانت تقاتل بزيها العسكري جنباً إلى جنب مع الرجال في حصار (ديراكيوم) عام ٤٧٤هـ - ١٠٨١م (Anna Comnena, 1116, p116) وهذا شكل سياقاً مرجعياً لآنا في تقييم بسالة النساء وتأثيرهن في الميدان العسكري والسياسي، ولم يقتصر رصدها على الميادين بل امتد

ليشمل الذئكة الإدارية كما في حالة حاكمة «هيدرونوم» التي أدارت الدفاع عن بلدتها بذكاء ومناورة في مواجهة الحصارا؁ لتؤكد هذه الوثائق بمجملها أن دور المرأة في عصر الحروب الصليبية لم يكن هامشياً أو مقتصراً على التبعية؁ بل تراوح بين الدعم المالي اللوجسٲتي والفاعلية الميدانية والقيادة السياسية؁ صائغاً بذلك هوية نسوية معقدة في خضم التحولات الكبرى التي شهدتها القرون الوسطى. (Anna Comnena, ٢٠٠٠, p١١٧) وتعدّ مشاركة المرأة في الحملة الصليبية الأولى ظاهرة ذات طابع اجتماعي و تاريخي معقد؁ إذ فاقت الاستجابة النسائية لدعوة البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥ التوقعات؁ وهو ما دفع المؤرخين المعاصرين إلى تفسير هذا الحضور في ضوء تداخل الدوافع الدينية المرتبطة بالخلاص مع اعتبارات الأمان مقارنة بمخاطر الحج الفردي؁ ورغم كل الانتقادات التي وجهها Albert of Aachen والتي سعت إلى التقليل من شأن النساء واتهامهن بدوافع غير جادة؁ فإن المعطيات المادية خاصة إسهاماتهن المالية؁ تكشف عن دور المرأة الفعّال في دعم الحملة واستمرارها؁ كما أن التمايز الطبقي أسهم أيضاً في تحديد طبيعة المشاركة بين النساء الفقيرات والنبيلات (عاشور؁ ١٩٨٦؁ ص ٨٨-٩٠) أما في السياق البيزنطي فقد تقدم Anna Comnena في مؤلفها الألكسياد قراءة نقدية دقيقة جداً؁ إذ وصفت التدفق الصليبي بالسيول البشرية التي شملت النساء؁ ورغم نزعتها النقدية تجاه الفرنجة؁ فإنها أقرت بجرأة بعض النساء اللواتي ظهرن بسماٲات قتالية؁ كما وثقت نماذج نسوية قيادية في المجالين العسكري والإداري؁ مما يعكس أن المرأة لم تكن مجرد عنصر تابع بل عنصراً فاعلاً ومؤثراً في مجريات الصراع (Anna Comnena, ٢٠٠٠, p١٣٤-١٣٧) هذا وتكشف دراسة الحضور النسائي في هذه المرحلة عن تحولات بنيوية عميقة في مجتمعات العصور الوسطى؁ حيث لم تقتصر مشاركة النساء على التبعية؁ بل امتدت إلى أدوار اقتصادية ولوجسٲتية حاسمة؁ سواء عبر تمويل الحملات أو دعم الجيوش في لحظات الحصار؁ رغم محاولات بعض المؤرخين اللاتين في التقليل من هذا الدور عبر تفسيرات أخلاقية منحازة .

وفي المقابل تروى المصادر التاريخية صورة أكثر توازناً، إذ توثق معاناة النساء ومقاومتهن في مواجهة العنف والتحولات القسرية، بما يعكس تعددية التجربة النسوية بين الفعل والمعاناة (عبد، ١٩٨٠، ١٤٥-١٤٨) وأما في مرحلة الاستقرار وتأسيس الإمارات الصليبية في المشرق العربي الإسلامي، فقد برزت إشكالية الهوية من خلال مسألة الزيجات المختلطة، حيث أظهرت النصوص التاريخية قدراً كبيراً من التفاؤل بإمكانية الاندماج، غير أن القوانين الكنسية والتنظيمات الاجتماعية كشفت عن استمرار القيود الصارمة، مما جعل المرأة محوراً لصراع الهويات الدينية والسياسية ويعكس هذا الواقع إن الدور الذي لعبته المرأة في تلك الفترة لم يكن هامشياً، بل تشكل عبر مستويات متعددة حيث شملت القيادة والدعم الاقتصادي والمقاومة، مساهماً في صياغة بنية اجتماعية معقدة ضمن سياق الصدام الحضاري (عبد، ١٩٨٠، ص ٢٣٣-٢٣٦)

2.3- النساء و الزواج ومملكة بيت المقدس : وعلى الرغم من العنف الذي حدث على أيدي الجيش الصليبي، إلا أن الانتقال من مرحلة الحملة الصليبية إلى مملكة بيت المقدس بالنسبة للنساء قد انطوى على الزواج من صليبيين سابقين، كانت الزيجات بين الأديان قد أعيد تأكيد حظرها مؤخراً، مع إعادة اكتشاف «مدونة جستينان» في القرن الحادي عشر، لا سيما في مراكز العلم كبولونيا، تنامي الاهتمام بدراسة القانون الروماني الذي فرض بدوره قيوداً قانونية مشددة على الفئات غير المسيحية، حيث شملت هذه النصوص تحجيم الحقوق المدنية لليهود والمسلمين ومنعهم من تملك العبيد المسيحيين أو تولي مناصب السلطة، فضلاً عن حظر المصاهرة والعلاقات بين المسيحيين وغيرهم (Nicholson, ٢٠٠٨, p1٤٣) ورغم عدم وجود قانون رسمي يمنع صراحةً الاتحاد بين الكاثوليك اللاتين والبيزنطيين أو المسيحيين الشرقيين، إلا أن هذه الزيجات كانت تواجه استهجاناً سلطوياً واسعاً، وقد تعاضم هذا الرفض والتحريض ضد الزواج من غير المسيحيين مع انطلاق الحملات الصليبية، حيث ساد اعتقاد كنسي بضرورة نبذ الارتباط بالنساء المحليين ما لم يعتنقن

المسيحية، وهو ما جعل فكرة اتخاذ زوجة محلية ترفض تغيير دينها أمراً مستهجناً اجتماعياً ودينياً، (p0,2010, Tohtolan) وفي حين تفتقر الأدلة التاريخية إلى توثيق حالات زواج واسعة النطاق خلال محاولات الاستقرار الصليبي، يقدم المؤرخ « Fulcher of Chartres » صورة مغايرة في حوارياته بوصفه للتعايش بعد الحملة الأولى، مشيراً إلى أن بعض الصليبيين اتخذوا زوجات من السوريات والأرمنيات وحتى المسلمات اللواتي تعمدن، مما يوحي بوجود حالات زواج مختلط كانت مشروطة دوماً باعتناق المسيحية، (Fulcher of Chartres, 1961, p280-281) إلا أن هذا المنظور السلمي الذي رسمه فوشيه يصطدم بواقع تاريخي أكثر تعقيداً ومقاومة، حيث وثق المؤرخ بن منقذ حالات ترفض فيها النساء المسلمات هذا الاندماج القسري، وصلت إلى حد الانتحار لتجنب الأسر أو الزواج من الفرسان الفرنجة، كما تؤكد مصادر أخرى ثبات الكثير من النساء على عقيدتهن ورفضهن التحويل الديني رغم الضغوط الاجتماعية والجسدية، مما يشير في المحصلة إلى أن أغلب الزيجات التي استقرت كانت في الأصل من نساء مسيحيات محليات، وأن الاندماج الحقيقي عبر المصاهرة ظل محدوداً واستثنائياً في بلاد الشام، و يروي أسامة بن منقذ إحدى الإشكاليات الدقيقة في دراسة المجتمع في بلاد الشام وقدم صورة مركبة عن واقع النساء في ظل الصراع. فعند العودة إلى شهادة أسامة بن منقذ في كتابه كتاب الاعتبار، نجد وصفاً حياً لمناخ الخوف الذي كان يحيط بالمجتمعات الإسلامية في مناطق الاحتكاك مع الفرنجة، خاصة فيما يتعلق بأسر النساء، إذ يورد حوادث تُظهر القلق العميق من الوقوع في يد العدو وما قد يترتب عليه من فقدان الحرية والهوية الدينية والاجتماعية، غير أن نصوصه رغم ثرائها، لا تتضمن تصريحاً مباشراً بوقوع حالات انتحار جماعي أو فردي للنساء لتجنب الزواج من الفرنجة، بل تقدم سياقاً عاماً يمكن أن يفهم منه مدى الرفض والمقاومة النفسية والاجتماعية لمثل هذا المصير، وهذا وأشارت بعض الروايات الإسلامية الذي تعكس استعداداً نفسياً لدى النساء لتفضيل الموت على الوقوع في الأسر، وهو استنتاج تحليلي يستند

إلى قراءة السياق العام لا إلى نص صريح محدد، وهو ما يفرض على الباحث ضرورة التمييز بين المصدر الأولي والتحليل الثانوي كما تؤكد دراسات أخرى أن حالات الاندماج الاجتماعي عبر الزواج بين الفرنجة والسكان المحليين لم تكن واسعة النطاق ، كما قد توهي بعض الطروحات، إذ تشير الأدلة إلى أن أغلب هذه الزيجات كانت تتم مع نساء مسيحيات شرقيات، سواء من السريان أو الأرمن، بحكم القرب الديني والثقافي، في حين ظل زواج النساء المسلمات من الفرنجة نادراً ومحدوداً ومحاطاً بعوائق دينية واجتماعية قوية، وهو ما يعكس تمسكاً واضحاً بالهوية الدينية في ظل ظروف قسرية، ويبرز أن ما يبدو أحياناً كصورة (اندماج سلمي) لم يكن في الواقع سوى حالات استثنائية لا تعبر عن الاتجاه العام للمجتمع الإسلامي في تلك المرحلة (بن منقذ، ٢٠٠٨، ص ٢٧١-٢٨١) هذا وانعكس أثر هذه المصاهرات بشكل جلي على ميزان القوى في إمارة الرها، حيث لم تكن هذه الزيجات مجرد روابط عائلية عابرة، بل مثلت الركيزة الأساسية التي استند إليها الحكم الصليبي لضمان استقراره في بيئة غلب عليها العنصر الأرمني (عبد، ١٩٨٠، ص ١٥٤) فمن خلال ارتباط بالدوين الثاني بمورفيا «Morphia» ابنة النبيل الأرمني «خوريل»، نجح الصليبيون في تحويل العداء أو التوجس المحلي إلى تحالف استراتيجي متين، إذ منح هذا الزواج شرعية سياسية للحكام الجدد بصفتهم صهراً للنبلاء المحليين وليس مجرد غزاة أجنب، مما أدى إلى دمج النخب الأرمنية في هيكل السلطة وتأمين الولاء العسكري والسياسي للإمارة في مواجهة القوى المجاورة (عاشور، ١٩٨٦، ص ٤١٢) أسهمت هذه المصاهرات في نشوء فئة من الحكام ذوي الطابع الهجين، الذين امتلكوا إدراكاً أعمق لبنية المنطقة الاجتماعية والدينية، مما أتاح لهم قدرات أكبر على إدارة الخلافات اللاهوتية بقدر من المرونة، ورغم التباينات العقدية المرتبطة بمجمع خلقيدونية الذي عُقد عام ٤٥١م و١٠٥٩م وفضل قادة الرها مثل جوسلين وبالدوين، تغليب الاعتبارات السياسية وتأمين العمق الأرمني على الانخراط في صراعات دينية، الأمر الذي جعل من إمارة الرها نموذجاً متميزاً في الاندماج (الفرنجي - الأرمني)

وأُسهم في إطالة مدة الوجود الصليبي فيها (عبده، ١٩٨٠، ص ١٥٥) وفي السياق ذاته فقد برزت شخصيات تاريخية أخرى كان لها دور محوري في ترسيخ هذا الاندماج وإعادة تشكيل موازين القوى في إمارتي الرها وأنطاكية، ومن أبرزها النبيل الأرمني كوشيل (Kogh Vasil) حاكم كيسون الذي انتقل من حالة الصراع مع الصليبيين إلى تحالف استراتيجي معهم حتى عُدَّ بمثابة «أب روعي» لبعض قادتهم بما يعكس دوره كوسيط ثقافي وعسكري فاعل أسهم في تحقيق التوازن والاستقرار النسبي في المنطقة (عاشور، ١٩٨٦، ص ٤١٥).

- أزدا الأرمنية: برز دور أزدا الأرمنية، الزوجة الأولى لـ بالدوين الأول، بوصفها عنصرًا فاعلاً في تشكيل البنية السياسية الناشئة في المشرق اللاتيني، إذ مثّل زواجه منها، وهي ابنة أحد نبلاء الأرمن في منطقة جبال طوروس، خطوة استراتيجية أسهمت في ترسيخ أواصر التحالف مع النخب المحلية. وقد أتاح هذا الارتباط لـ بالدوين، الذي كان قبل ذلك أحد قادة الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩هـ-١٠٩٦م، أن يعزز موقعه السياسي في الرها، وأن يكتسب دعمًا محليًا أساسيًا ساعده لاحقًا على تأسيس إمارة الرها. (عاشور، ١٩٨٦، ص ٢٤٧-٢٤٨).

- بياتريس الأرمنية: ولم يقتصر هذا النمط من التحالفات على النخب الحاكمة فحسب، بل امتد ليشمل الزيجات السياسية بين البيوتات الأرمنية والقادة اللاتينيين، كما هو الحال مع الأرمنية Beatrice زوجة جوسلين الأول، والتي لعبت دورًا مهمًا في تدعيم الروابط الأسرية والسياسية بين إمارة الرها والطبقات الأرمنية المحلية. (عبده، ١٩٨٠، ص ١٥٦) وقد أسهمت هذه الروابط في إرساء شبكة من المصالح المشتركة، مكّنت من تحقيق قدر من الاستقرار النسبي في المنطقة، وتشير المعطيات التاريخية إلى أن هذه التحالفات المصاهرة لم تكن مجرد علاقات شخصية، بل شكّلت آلية سياسية واعية اعتمدها القادة اللاتينيين لضمان استمرارية حكمهم في بيئة ذات غالبية أرمنية وسريانية، كما أفضت هذه السياسة إلى تداخل ثقافي وإداري ملحوظ، جعل من إمارة الرها كيانًا هجينًا في تكوينه، أقرب إلى كيان أرمني-لاتيني مشترك، يتسم بتفاعل ثقافي وديني

واجتماعي، أكثر من كونه مستعمرة لاتينية خالصة، وهو ما انعكس على طبيعة الحكم والتحالفات العسكرية والدبلوماسية في تلك المرحلة المبكرة من الوجود الصليبي في المشرق (عبد، ١٩٨٠، ص ١٥٧) وهذا التداخل العميق هو ما جعل إمارة الرها تعتمد بشكل شبه كلي على المشاة الأرمن في جيوشها، بل وسمح لبعض القادة الأرمن بالاحتفاظ بحصونهم تحت السيادة الصليبية الاسمية، مما خلق حالة من التوازن العسكري والسياسي الفريد الذي ميز شمال بلاد الشام عن مملكة القدس اللاتينية الجنوب. (عاشور، ١٩٨٦، ص ٤١٨) وتتجلى إشكالية دور النساء في الحملة الصليبية من خلال معلومات معقد بين الواقع الميداني والتصورات الاجتماعية السائدة آنذاك، حيث تشير النصوص التاريخية إلى أن فكرة الاندماج الاجتماعي عبر الزواج المختلط بين الصليبيين والنساء المحليات لم تكن ظاهرة شائعة كما يُروَّج لها، بل إن هناك الفوارق الدينية والثقافية خلقت حاجزاً منيعاً جعل من فكرة القبول بالآخر أمراً نادراً للغاية، وخاصة مع تواتر الروايات التي تؤكد تفضيل بعض النساء المحليات الموت أو الانتحار على الارتباط بمن هم خارج ديانتهن، وهو ما أشار إليه ابن منقذ في وصفه للتوتر الحضاري بين المسلمين والفرنجة، الأمر الذي يفند فرضية التراضي الواسع في تلك الزيجات ويجعلها استثناءً لا قاعدة (بن منقذ، ٢٠٠٨، ص ١٤٨-١٥٠) هذا وفي المقابل فقد برزت المرأة في خضم الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م كعنصر فاعل ومحوري في قلب الصراعات والحصارات، إذ لم يقتصر دورها على كونها ضحية للمعارك الدامية، بل شكلت جزءاً من البنية اللوجستية للجيش، حيث شاركت في نقل المياه والمؤن وحتى المساهمة في دعم العمليات الدفاعية أثناء الحصار، وهو ما تذكره المصادر اللاتينية والعربية على حد سواء، وعلى الرغم من أن هذه الأدوار قوبلت بنظرة دونية من بعض القادة الذين سعوا إلى إبعاد النساء عن المعسكرات بدعوى الحفاظ على الانضباط الأخلاقي (عاشور، ١٩٨٦، ص ١٢١-١٢٣) وبالتوازي مع هذا الدور الميداني، لقد كانت النساء المحليات يسطرن أشكالا متعددة من المقاومة والرفض، حيث تراوحت ردود أفعالهن بين

الفرار وطلب الحماية من القوى المحلية، وصولاً إلى تصوير معاناتهن في المصادر التاريخية بوصفها دليلاً على قسوة الغزو الصليبي، إذ استخدم المؤرخون هذه الروايات لتجسيد حجم المآسي والانتهاكات التي رافقت تلك الحملة، وهذا ما يعكس صورة مركبة للمرأة تجمع بين الاستضعاف الجسدي والقدرة على الفعل والتأثير في مجريات الأحداث (معلوف، ١٩٨٥، ص ٧٨٨٢) (زكار، ١٩٩٥، ص ٢٥٥-٢٥٨).

الخاتمة

- ▶ تظهر الدراسة أن مساهمة المرأة لم تقتصر فقط على الحضور التبعي أو المرافقة الهامشية، بل اتخذت طابعاً بنوياً فاعلاً ضمن منظومة الحملة، فقد أسهمت النساء بما يقارب ٩-١٠٪ من الموارد المالية عبر تصفية ممتلكاتهن وبيع أصولهن، الأمر الذي جعل من مشاركتهن عنصراً اقتصادياً حاسماً في تمويل العمليات العسكرية وضمان استمراريتها.
- ▶ تكشف الدراسة عن أن هناك تباين واضح جداً في أدوار النساء تبعاً لمكانتهن الطبقية؛ إذ أظهرن النساء النبيلات في أدوار قيادية وإدارية ومارسن ضغوطاً سياسية مؤثرة جداً كما فعلت الأميرة (Elvira of Galicia) في حين انخرطت النساء من الطبقات الدنيا في مهام لوجستية شاقة شملت حفر الخنادق، ونقل المياه والطعام، وصولاً إلى المشاركة القتالية في ظروف استثنائية، بما يعكس تنوعاً وظيفياً داخل البنية الاجتماعية للحملة.
- ▶ بينت الدراسة إن المصاهرة بالنساء الأرمنيات (وأزدا وبياتريس الأرمنية) استراتيجية سياسية متعمدة هدفت إلى ترسيخ الوجود اللاتيني في الشرق، فقد أسهمت هذه الزيجات في منح الحكام الصليبيين شرعية محلية، وأيضاً إعادة تشكيل هويتهم من قوة غازية إلى جزء من النخب الإقليمية، وهو ما أدى ذلك إلى بروز كيانات هجينة ثقافياً، خاصة في إمارة الرها.
- ▶ يتضح من خلال تحليل الدراسة إن التحول في أنماط المقاومة

لدى النساء غير المسيحيات، ولا سيما اليهوديات اللواتي لجأن إلى الانتحار أو التضحية بالأبناء ضمن مفهوم (تقديس اسم الله) وذلك حفاظاً على العقيدة إلى جانب هذا فقد كما تجلّت أشكال أخرى من المقاومة لدى النساء المسلمات تمثلت في رفض الاندماج القسري، بما حوّل الجسد النسوي من موقع للضعف إلى أداة للممانعة الدينية والثقافية.

▶ تُفضي معطيات الدراسة عن وجود مفارقة بين الدور الحيوي و الاستراتيجي للنساء داخل المعسكرات الصليبية وبين الموقف الكنسي المتشدد الذي سعى إلى تقييد وجودهن بدوافع أخلاقية رغم الحاجة اللوجستية الملحة لهن، فقد تعرضن لإقصاء قسري كما في أحداث حصار أنطاكية، وذلك في محاولة لتطهير الجيش من (الفساد الأخلاقي) مما يعكس صراعاً بين مقتضيات الحرب والخطاب الديني.

▶ توصلت الدراسة إلى بداية تشكل هوية مركبة لدى الافرنجة المستقرين، وهو ما عبّر عنه المؤرخ فوشيه بقوله إنهم (تحولوا من غربيين إلى شرقيين) فقد كان للمرأة المحلية دور مركزي في هذا التحول عبر علاقات الزواج والاختلاط الثقافي، مما أسهم في إعادة تشكيل أنماط العيش، والبنى الاجتماعية، والأنماط الإدارية، لتتشكل هوية (صليبية - مشرقية) هجينة.

▶ تبرز الدراسة عن الأهمية السردية للنساء في كتابة تاريخ الحروب الصليبية من خلال أعمال Anna Comnena التي قدمت في (الألكسياد) تحليلاً سياسياً دقيقاً للأحداث، متجاوزة في كثير من الأحيان الطرح التقليدي للمؤرخين الذكور. وتُعد شهادتها مصدراً أساسياً لفهم الرؤية البيزنطية للحملة، بما تحمله من عمق تحليلي ومصادقية تاريخية عالية.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن. (١٩٦٥) الكامل في التاريخ، مج ١٠، دار صادر، بيروت.
- بن منقذ، أسامة (٢٠٠٨)، كتاب الاعتبار، تحقيق قاسم السامرائي، دار صادر، الرياض.
- رايلي، سميت جوناثان (٢٠٠٥) الحملة الصليبية، ترجمة محمد مؤنس عوض، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة.
- زكار، سهيل (١٩٩٥) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، مج ١، دار الفكر، دمشق.
- سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٨٦) الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي، مكتبة الأنجلو، القاهرة.
- سعيد عبد الفتاح عاشور (١٩٩٠) أوروبا العصور الوسطى: النظم الحضارية، دار النهضة العربية، القاهرة.
- قاسم عبده قاسم (١٩٨٠) عصر الحروب الصليبية: السياسة والاجتماع والقرون الوسطى، دار الشروق، القاهرة.
- أمين معلوف (١٩٨٥) الحروب الصليبية كما رآها العرب، دار الفارابي، بيروت.
- Albert of Aachen. (2013). History of the Expedition to Jerusalem (S. Edgington, Trans.). Oxford: Clarendon Press.
- Anna Comnena. (2000). The Alexiad (E.R.A. Sewter, Trans.). London: Penguin Classics.
- Boswell, J. (1980). Christianity, Social Tolerance, and Homosexuality (Trans. ed.). Chicago: University of Chicago Press.
- Chazan, R. (1987). European Jewry and the First Crusade. Berkeley: University of California Press.
- Ciggaar, K. N. (1994). Western Travellers to Constantinople: The West and Byzantium. Leiden: E.J. Brill.



- Evans, M. R. (2001). The Role of Women in the First Crusade. In S. Edgington & S. Lambert (Eds.), Gendering the Crusades (pp. 59-45). New York: Columbia University Press.
- Filcher of Chartres. (1941). A History of the Expedition to Jerusalem, 1127-1095 (F. R. Ryan, Trans.). Philadelphia: University of Pennsylvania Press.
- Guibert of Nogent. (1989). The Deeds of God Through the Franks (R. Levine, Trans.). Woodbridge: Boydell Press.
- Hodgson, N. L. (2007). Women, Crusading and the Holy Land in Historical Narrative. Woodbridge: Boydell Press.
- Kostick , C. (2008). The Social Structure of the First Crusade. Leiden: Brill.
- Hussien,F (2023) The virtues of Al-Aqsa and Al-Quds Al-Sharif and the prophets, companions and followers who lived there.. INTERNATIONAL MINNESOTA JOURNAL OF ACADEMIC STUDIES, (ISSUE:5), (VOL: 2), ,Pp:92-63
- Maier, C. T. (2004). The Roles of Women in the Crusade Movement: A Survey. Journal of Medieval History, -61 ,(1)30 82.
- Michael, J. (1984). The Byzantine Empire. London: Longman.
- Nicholson, H. (2008). The Crusades. Westport: Greenwood Press.
- William of Tyre. (1943). A History of Deeds Done Beyond the Sea (E. Babcock & A. Krey , Trans.). New York: Columbia University Press.



الجامعة الإسلامية بنيسوتا

Islamic University of Minnesota

المركز الرئيسي IUM